القســـــم الثـــــالث

الانثروبولوجيـــــا الحضريـــة

الفصل الحادى عشر : الانثروبولوجيا الحضرية

الفصل الثانى عشر : تكيف المهاجرين الريفيين بالمدينة . دراسة حالة لمدينة القاهرة

الفصل الثالث عشر : مفهوم الحارة . دراســـة تاريخية سوسيولوجية لحارة السكرية .

الفصل الحادى عشر

الأنثروبولوجيـــا الحضرية (*)

أولا — الأنثروبولوجيون والبحوث الحضرية

شهدت السنوات الأخيرة نموا سريعا فى البحوث الحضرية التى اجريت على بعض المشكلات الحضرية فى الولايات المتحدة . ولازال الجانب الأكبر من هذه البحوث فى طور الاعداد ، أو نشرت تقاريره فى بعض المجلات العلمية المتفرقة . وعليه فان هذا الفصل سوف يتناول أساسا امكانيات هذا الميدان من ميادين الدراسة ، ولن يقدم عرضا شاملا لما أجرى فيه .

أبدى الأنثروبولوجيون منذ أمد بعيد اهتماما بدراسة أصول « الحضرية » Urbanism ، كما أشرنا الى ذلك فى موضع سابق (**) . ويرتكز هذا الاهتمام بالأصول أساسا على البيانات الأركيولوجية ، أو يمثل جزأ من صياغات نظرية عامة عن التغير الثقافى ، غالبا ما تكون ذات وجهة تطورية واضحة . ثم ازداد الاهتمام بدراسة الحضرية والمجتمعات المركبة زيادة كبيرة خلال العقد الماضى . ولو أن هناك بعض الدراسات الأنثروبولوجية الحضرية التى

(*) ترجم هذا الفصل الدكتور محمد الجوهرى عن المصدر التالى :

Ralph Beals and Harry Hoijer, An Introduction to Anthropology, Fourth Edition. The Macmillan Company, New York. 2nd Printing, 1972, pp. 645-661.

(**) يشير المؤلف الى الفصل التاسع من كتابه « مقدمة فى الانثروبولوجيا » الذى ترجمنا عنه هذا الفصل ، وهو بعنوان : انتاج الطعام والحياة الحضرية » ، من ص ٢٨٥ حتى ٣١٤ من الطبعة الرابعة . (المترجم)

بدات في عشرينات هذا القرن . وظهرت منذ ذلك التاريخ مجموعة صغيرة — ولكنها متزايدة باستمرار — من الدراسات الأنثروبولوجية . بل انه حدث بالفعل في تسعينات القرن الماضي أن شاركت « جمعية الأنثروبولوجيا » * في واشنطون في مسح عن الاسكان المحلي ، كما شاركت في تنظيم مشروع لاسكان محدودي الدخل ، ربما كان أول مشروع من نوعه يمول تمويلا خاصا في الولايات المتحدة .

ولعل أقدم الدراسات الحضرية التي أجراها باحثون انثروبولوجيون قد تمت في افريقيا . منها مثلا الدراسة التي أجراها هوراس ماينر Horace Miner في عام ١٩٤٠ لمدينة تمبكتو ، التي أصبحت ضمن جمهورية مالي التي استقلت حديثا (١) . ولقد كان من الأهداف الهامة لدراسة ماينر اختبار نظرية روبرت ردفيلد عن ثنائية المجتمع الشعبي Folk والمجتمع الحضري urban في اطار مدينة قديمة سابقة في وجودها على عهد الاستعمار ، وكان التأثير الأوروبي عليها حديثا بحيث يمكن التعرف عليه وتحديده . الا أن كتاب ماينر ليس في جوهره سوى اثنوجرافيا وصفية مقسمة الى رؤوس الموضوعات التقليدية ، اللهم الا اذا استثنينا المقدمة وفصلا ختاميا يتناول بعض المناقشات النظرية .

ونسجا على منوال ماينر ، ابدى انثروبولوجيون آخرون اهتماما بالمشكلات الحضرية في مدن غرب وشرق افريقيا . وتتناول كثير من هذه الدراسات بعض الملامح الخاصة المميزة لتلك المدن ، كتكيف المهاجرين اليها ، أو الاتحادات الطوعية ، أو نظام الأسرة والقرابة ، أو المشاركة في الحياة السياسية . وقد أجريت في الجزء الجنوبي والأوسط من افريقيا على آثار الهجرة الى المناجم أو المدن سعيا وراء العمل . ولاشك أن الجهود التي

(*) The Society of Woman Anthropologists.

(1) Horace Miner, The Primitive City of Timbuctoo, American Philosophical Society Memoir 32 (Prnceton, N.J.. : Princeton Universty Press, 1953).

تحاول الوصول الى تعميمات عن المدن الأفريقية تصادف بعض الصعوبات لأن الفروق القائمة بين المدن الوطنية ، والمدن التى انشأها الأوربيون كمراكز للادارة ، أو التجارة ، أو الصناعة لم تتحدد بعد .

أما عن الدراسات الحضرية التى اجراها انثروبولوجيون فى أمريكا اللاتينية فهى الأخرى حديثة نسبيا . وقد تركز معظم الاهتمام فى تلك المنطقة من العالم على دراسة الأحياء الفقيرة او أحياء الجيتو أو المناطق التى يتركز فيها السكان بوضع اليد ، والتى يطلق عليها عديد من الأسماء مثل : barrios, barriadas, vecindades, Favetas, callejones, etc.

وانصب الاهتمام هنا أيضا على بعض الملامح الخاصة مثل الاتحادات ، أو الانخراط فى النشاط السياسى ، أو بعض عناصر عملية التحضر . وكان من الاهتمامات الرئيسية فى جميع الأحوال دراسة مدى تكيف المهاجرين مع ظروف الحياة فى المدينة . كذلك أجرى بعض علماء الاجتماع دراسات فى أمريكا اللاتينية ، ولكنا لانستطيع أن نميز بسهولة بين دراساتهم والدراسات الأنثروبولوجية بسبب نقص البيانات الاحصائية السليمة .

أما فى الولايات المتحدة فقد كانت دراسات روبرت وهيلين لوند Lynd عن الميدلتون (وهى اسم مستعار لاحدى مدن الغرب الأوسط) من المعالم الأولى فى حقل الدراسات الأنثروبولوجية الحضرية (٢) . وعلى الرغم من أنهما كانا من علماء الاجتماع ، الا أنهما اعتبرا دراستهما تلك دراسة أنثروبولوجية للسببين التاليين : —

١ — أنهما حاولا تناول الثقافة الكلية والبناء الاجتماعى للمجتمع المحلى .

---

(٢) Robert S. Tynd and Helen M. Lynd, Middletown : A Study in American Culture (New York : Harcourt, Brace, 1929) ; Middletown in Transition : A Study in Cultural conflict (New York : Harcourt Brace, 1937).

٢ ــ أنهما استخدما المناهج الاثنوجرافية استخداما مركزا (منها مثلا : الاقامة لمدة طويلة ، والملاحظة المشاركة ، وأساليب المقابلة المركزة) .

وقد استكملا هذه الأدوات باستخدام المعلومات المنشورة والبيانات الاحصائية المتاحة . وتناسب مع ذلك كله أن مقدمة الدراسة كتبها عالم أنثروبولوجى هو : كلارك ويسلر .

وطبقت الدراسة على مجتمع كبير ــ نسبيا ــ نفس الأساليب تقريبا التى كان الأنثروبولوجيون قد بدأوا يستخدمونها فى دراسة المجتمعات المحلية فى أمريكا اللاتينية . وقد حاول المؤلفان فى الكتاب الأول أن يحددا البناء الرسمى وغير الرسمى لمجتمع المدينة وكذلك الأدوار الاقتصادية والاجتماعية ، وميكانيزمات المكانة والهيبة ، وطبيعة بناء القوة ، والتنظيم الاجتماعى والمشاركة فى التنظيم ، ومدى الاتجاهات والقيم . وكانت الدراسة الأولى قد أجريت فى وقت يتميز بالاستقرار المصحوب بارتفاع مستوى الرفاهية الاقتصادية ، عندما كان المجتمع المحلى يتميز بدرجة عالية من التجانس الثقافى . أما الدراسة الثانية فقد حاولت أن تقف على آثار الكساد الكبير الذى شهده العالم فى أوائل الثلاثينات ، عندما أدى الفقر ، وعدم الأمن ، وتبدل القيم الى خلق الصراع بين أفراد المجتمع .

وكان لويد وارنر من الرواد الآخرين بين الأنثروبولوجيين الأمريكيين الذين درسوا الحياة الحضرية فى الولايات المتحدة . وكان وارنر قد قام فى البداية بدراسة مركزة لمجتمع محلى قديم فى مقاطعة نيو انجلند اطلق علية اسم : « اليانكى سيتى » «Yankee City» فى كتاباته . وقد اكتسب وارنر خبراته الميدانية الأولى فى دراسة مجتمع مورنجين Murngin فى شمال استراليا تحت اشراف رادكليف براون . وقد قرر وارنر أن خبرته هناك كانت اعداد بالغ القيمة للدراسات الحضرية التى قام بها فيما بعد . وقام وارنر ــ بمعاونة مجموعة من مساعديه ــ بدراسة اثنوجرافية مركزة للمجتمع المحلى الذى اختاره ، وأضاف الى الاعتماد على المصادر الاحصائية والمطبوعة الاستعانة بالمقابلات المركزة المتعمقة . وكان من الأهداف

الرئيسية للدراسة اختبار الفرض — الذى كان شائعا فى اوائل هذا القرن — والذى مؤداه أن الولايات المتحدة مجتمع لاطبقى نسبيا بالقياس الى المجتمعات الاوربية . وقد انتهى وارنر الى تحديد ثلاث طبقات رئيسية ، تتكون كل طبقة منها من شريحة عليا واخرى دنيا . وانتهى الى التسميات التالية — الغريبة بعض الشىء — للطبقات فى المجتمع الأمريكى : — الطبقة العليا العليا ، والعليا الدنيا ، والوسطى العليا ، والوسطى الدنيا ، والدنيا العليا ، والدنيا الدنيا . ورفض وارنر الاعتماد الكلى على المعايير الاقتصادية والمهنية فى تحديد عضوية الطبقة الاجتماعية . واستخدم بدلا من ذلك بعض المؤشرات التالية : — تقيم الفرد لذاته ، تقييم الآخرين للفرد ، وبعض اساليب تحديد المكانة الاجتماعية .

وقد أثارت دراسات وارنر عديدا من الانتقادات . فاعتبرت الغالبية أن تعريفاته للطبقة غير مرضية ، وخاصة الباحثين الذين يفضلون النظريات الماركسية فى الطبقات . واعترض آخرون على أساس أنه خلط بين الطبقة والمكانة . ثم نجد — من ناحية أخرى — ان الوفرة الهائلة فى البيانات الامبيريقية التى جمعها قد جعلت من المستحيل دراسة الطبقة فى الولايات المتحدة دون الاشارة الى دراساته . كما ان تلك الدراسات أوضحت بكل تأكيد دور الطبقة كعنصر من عناصر البناء الاجتماعى فى مجتمع الولايات المتحدة . هذا على الرغم من أن اسهامات وارنر المحددة قد وسعت ، لكى يطبق دراسته لمجتمع محلى واحد على البناء الاجتماعى الكبير كله . الا أننا نلاحظ أن وارنر وتلاميذه ، وغيره من الدارسين ممن استثارتهم بحوثه قد وسعوا من نطاق استخدامهم للمناهج الانثروبولوجية ، فاستعانوا بها فى دراسة الجماعات العنصرية ، ودراسة المشكلات التربوية ، وغير ذلك من النظم الخاصة ، وكذلك فى دراسة مجموعة متنوعة من المجتمعات المحلية فى الولايات المتحدة (٣) .

---

(٣) اصدر لويد وارنرست مجلدات فى سلسلة دراسات الباتكى سيتى لعل أقربها الى موضوعنا الدراستين التاليتين :

W. Lloyd Warner and Paul S. Lunt, The Social Life of a = Modern Community (New Haven : Yale Universityy Press.

ثانيا : دور الأنثروبولوجيا فى الدراسات الحضرية

من الواضح أن دراسة الظواهر الحضرية المعاصرة المركبة تتطلب الاستعانة بكفاءات عدد من فروع العلم مجتمعة . ومن الأسئلة التى لها ما يبررها أن نتساءل عما اذا كان لعلم الأنثروبولوجيا دور يمكن أن يؤديه فى هذا الصدد مستقلا عن علماء السياسة ، والاقتصاديين ، وعلماء الاجتماع على وجه الخصوص . لاشك أن الآراء يمكن أن تختلف حول تحديد هذا الدور ، الا أن اعدادا متزايدة من الأنثروبولوجيين يعتقدون أنهم قادرون — وانه يجب عليهم — اجراء بحوث عن المشكلات الحضرية أو المتصلة بالمناطق الحضرية . وعلينا أن نلتمس تبرير لهذا الراى فى الحقيقة التى مؤداها أن الأنثروبولوجيين ينظرون الى المشكلات الحضرية من منظور جديد مختلف ، أو أنهم يطرحون انواعا مختلفة من المناهج . وما لم تتحدد الأدوار الخاصة بكل علم ، فان هناك خطر أن يجد الدارسون الأنثروبولوجيون للمناطق الحضرية أنفسهم يسلكون نفس مسلك الاقتصاديين ، أو علماء السياسة ، أو علماء الاجتماع ، بمعنى أن يجدوا أنفسهم يطرحون نفس التساؤلات ، ويستخدمون نفس المناهج ، التى قد لا يكونون مدربين عليها التدريب اللازم فى أغلب الأحيان . ولذلك فان على الأنثروبولوجيين الحضريين أن يتعلموا كيف يستخدمون ، وكيف يكملون دراسات العلماء الآخرين . وسوف نتناول فى هذه الفقرة بعضا من هذه المشكلات فى خطوطها العامة . أما فى الفقرات التالية فسوف نستعرض بعض النماذج المختارة للبحوث الحضرية التى قام بها علماء انثروبولوجيون .

= 1945), and W. Lloyd Warner and Leo Srote. The Social Systems of American Ethnic Groups (New Haven : Yale University Press, 1945).

وللوقوف على دراسات أخرى متصلة بالموضوع ارجع الى قائمة « القراءات المقترحة » الواردة فى نهاية هذا الفصل .

من اسهامات الدارس الانثروبولوجى الحضرى نظرته الى الثقافات والمجتمعات المختلفة ككيانات ذات ابنية محـــددة ، تكون انساقا متفاعلة متداخلة . ويتمثل الاسهام الذى حققته دراسات لويد وارنر لمجتمـــع مورنجين فى استراليا فى النظرة التى أمدته بها الى كيفية تكون المجتمعـــات وثقافتها من ابنية محددة وتنظيم يجمعها فى كيان كلى . كذلك حاول الباحثان لوند أن ينظرا الى « الميدلتون » ككيان كلى ، وان يفتشا عن البناء القائم وراء مظاهر الحيـــاة اليومية فيها . وهناك عدا هذا عديد من الدراســـات الأنثروبولوجية والسوسيولوجية الأخرى التى استخدمت اتجاها مماثلا . وسوف نرى فيما بعد أن اخفاق الباحث فى استخدام هذا الاتجاه على النحو الملائم كان مصدر أحد الانتقادات الرئيسية التى وجهت الى الدراسات الأنثروبولوجية التى أجريت على مجتمعات حضرية . ولو أننا يجب أن نعترف فى نفس الوقت أن مثل هذه الدراسات الكلية الشاملة * قد اقتصرت على مدن صغيرة نسبيا . ولم يحاول أحد حتى الآن — بنجاح — أن يتناول البناء الكلى لمدينة عظمى مثل نيويورك أو لوس انجلوس . وقد اقترب بعض مخططى المدن من هذه النظرة فى دراساتهم ، الا أن تحليلاتهم كانت تتميز فى الغالب بأنها قاصرة على الخطوط العامة أو تشوبها بعض الأحكام القيمة الذاتية غير المحصة عن مقومات الحياة الطيبة فى احدى المدن مثلا ، أو سبب اختيار الناس المعيشة فى المدن .

ومن سوء الحظ أن كثيرا من الذين أجروا دراسات حضرية قد اخفقوا فى النظر الى المدينة كوحدة كلية أو كشكل ثقافى اجتماعى متميز . فقد ركزت بعض الدراسات الأنثروبولوجية الحضرية على دراسة مشكلة معينة داخل احدى المدن ، كالقرابة ، أو الأسرة ، أو الاتحادات ، وغيرها من المشكلات التى ظل الأنثروبولوجيون منذ أمد بعيد يدرسونها فى المجتمعات القبليـــة أو القروية . وقد طرحت غالبية تلك الدراسات كما يقول ليدز Leeds

---

(*) Holistic Studies.

التساؤل التالى : « كيف يؤدى نظام القرابة (أو اى ظاهرة اخرى) وظيفته فى المدينة ؟ » ، بدلا من التساؤل عن : « ما هو أثر الحياة فى المدينة على القرابة ؟ » بمعنى آخر يمكن القول بأن دراستهم كانت دراسات للقرابة ، وليست دراسات لظواهر حضرية . ولذلك لا تؤدى مثل هذه الدراسات عادة الى تعميمات او تقود الى « نظرية أشمل عن المدن ، أو المجتمع الحضرى ، أو التطور الاجتماعى للمجتمعات الحضرية » (٤) .

وفى طائفة اخرى من الدراسات الأنثروبولوجيه الحضرية ، قام الباحثون بدراسة الجيوب السلالية ، أو المناطق المتخلفة ، أو أحياء السكان بوضع اليد كما لو كانت تلك المناطق تمثل مجتمعات محلية مستقلة بذاتها . وهم بذلك ينقلون الأساليب المستخدمة فى الدراسات القبلية أو دراسات المجتمع المحلى الى دراسة البيئة الحضرية بما فى ذلك اخفاقهم فى احيان كثيرة فى ربط تلك الوحدات الاجتماعية بالسياق العام الذى تنتمى اليه . وقد يكون من الجائز — من الناحية المنهجية — تجريد بناء مجتمع محلى معين من سياقه العام لبعض الأغراض الدراسية المعينة . الا أن هذا الأسلوب ينطوى على بعض الأخطار ونواحى القصور . واهمها انه يجب تحديد المتغيرات الخارجه عن ذلك البناء المعزول ، والتعرف على تأثيرها عليه . أو بمعنى آخر يمكننا القول بأن اى مجتمع محلى أو بناء معين قد يكون مستقلا بذاته ، ولكننا يجب الا نسلم بذلك اطلاقا ونعتبره أمرا بديهيا . ذلك ان السمات البارزة لأى وحدة أو بناء — مهما كانت درجة تحديدها — ليست ثمرة العوامل الداخلية او التطور الداخلى وحدة ، وانما يمكن أن تكون وليدة الثقافة الحضرية الكلية التى تعيش وسطها تلك الوحدة أو ذلك البناء .

---

(٤) Anthony Leeds, «Te Anthropology of Cities : Some Methodological Issues», ed. Elizabeth M. Eddy, Urban Anthropology : Research Perspectives and Strategies, Southern Anthropological Society Proceedings, No. 2, (Athens : university of George Press, 1968).

فدراسة ظاهرة كالقرابة داخل احدى المدن يمكن أن تساعد — كما لاحظ ليدز — على فهم القرابة ، ولكنها ليست بالضرورة دراسة الأنثروبولوجيا الحضرية . ولكي تكون مثل هذه الدراسة دراسة انثروبولوجية حضرية يجب أن تركز على العلاقة بين الحياة فى المدينة وظاهرة القرابة . كما انه يجب على الباحث ألا يقتصر على التساؤل عن : « ما هى آثار تلك الحياة فى هذا المكان وهذا الزمان بالذات ؟ » ، وانما يجب أن يتساءل كذلك عن : « ماذا يمكن ان تفيدنا به تلك الدراسة فى فهم الحضرية ؟ » فالباحث لايصح ان يتناول القرابة كشىء موجود عرضا فى المدينة ، وانما يجب ان يركز على دراسة أثر المدينة على المظاهر المتميزة للقرابة التى نصادفها فى نوع معين من المدن .

ويمكن القول بأن بعض نواحى التصور هذه التى تعيب كثيرا من الدراسات الأنثروبولوجية الحضرية تنطبق فى نفس الوقت على كثير من الدراسات الحضرية التى يقوم بها المتخصصون فى علوم اجتماعية أخرى . فقد ظلت غالبية دارسى الحضرية حتى عهد قريب يفترضون ان اى سمة من سمات المدينة يتوصلون الى اكتشافها تصدق على كل المدن فى كل زمان ومكان . الا أن وجود المدن فى عصر ماقبل التصنيع يدل على ان العلاقة المعاصرة بين التصنيع والحضرية علاقة حديثة . الا انه ليس صحيحا كذلك ان كافة المدن المعاصرة هى مراكز صناعية . بل ان اول المراكز الصناعية الرئيسية فى بريطانيا — الذى يعتبر مهد الثورة الصناعية — لم يقم فى مدن ، وانما عند رؤوس المناجم فى المناطق الوسطى التى لم تكن بعد حضرية فى ذلك الوقت . وتتبنى تلك الدراسات فرضا ثانيا مؤداه أن ما يصدق على المدن من ثقافة ما يصدق بالمثل على المدن فى ثقافات أخرى . ومن ثم فان النظرة المقارنة تعتبر أحد الاسهامات الهامة التى يمكن أن يقدمها الأنثروبولوجى للدراسات الحضرية . وقد قدم نفر قليل من الأنثروبولوجيين بعض المحاولات فى ذلك الاتجاه .

ومن المحاولات الأولى فى ذلك الاتجاه مجموعة الدراسات التى اجريت على المدن فى منطقة الأوقيانوسية ، والتى اشرف على تحريرها

الكسندرشبيون Alexander Spoehr (وسوف ترد الاشارة اليها فى القراءات المقترحة فى نهاية هذا الفصل) . وتوضح تلك الدراسات أن هذه المدن تمثل نوعا من الحضرية التابعة ، وانها قد انشئت فى الأصل كمراكز للادارة الاستعمارية ، وكمراكز تجارية . وهى تعكس من نواح قليلة بعض الأنماط الحضرية الخاصة المميزة للبلاد صاحبة السلطة الاستعمارية ، وخاصة فى تقسيمها الجغرافى وفى تجهيزاتها الادارية . ثم هى تتشابه من نواح اخرى ليس مع بعضها البعض فحسب ، وانما كذلك مع المناطق الحضرية فى أجزاء اخرى من العالم ، وخاصة المناطق الحضرية فى البلاد النامية . ويرجع النمو السكانى فى تلك المدن اساسا الى الهجرة من الريف الى الحضر كما أن هناك بعض الجماعات السلالية الخاصة التى تلعب دورا هاما فى تلك الزيادة كالصينيين أو الهنود . وقد أطلق أحد الكتاب على نمط الأسرة المتمركزة حول المرأة ، وما يترتب على ذلك من آثار اجتماعية ، صفة « الفوضوية » . وعلى الرغم من ظهور بعض الأشكال الاجتماعية التكيفية الجديدة ، الا أنه يمكن القول بوجه عام بأن الضوابط الاجتماعية والأشكال الاجتماعية لم تتطور بالصورة الملائمة . وتناولت بعض الدراسات الاخرى مشكلات متخصصة مثل دور القرابة ، أو طبيعة الحياة المنزلية الحضرية . وظهرت فى بعض الحالات انواع من الصناعة الأولية التى تستهدف اشباع الاحتياجات المحلية أو الاقليمية . ويرجع الفضل فى المبادأة الى انشاء الجانب الأكبر من تلك الصناعات ، وتمويلها ، وادارتها الى الهيئات الخارجية بسبب نقص رؤوس الأموال والخبرة المحلية .

وركزت دراسات انثروبولوجية اخرى على المقارنة بين الحياة الريفية والحياة الحضرية . وغالبا ما كانت تنظر الى المهاجرين كتروبين أو ريفيين مزروعين زرعا فى المدينة . بينما تناولت دراسات اخرى — ذات قيمة أكبر — عمليات التحول بين المهاجرين من الريف الى المدينة . ولا شك أن هذه الدراسات جميعا سليمة وهامة ، الا أن تطور الأنثروبولوجيا الحضرية يتطلب مزيدا من التركيز على المقارنة بين المدن .

ومن الموضوعات التى يمكن تناولها بالبحث فى هذا الصدد : ما اذا كان

هناك ثمة خصائص مشتركة بين مدن العواصم الصناعية (اى المنشأة عمدا وبناء عن تخطيط سابق) مثل كانبرا فى استراليا ، وبرازيليا فى البرازيل ، ونيودلهى فى الهند ، وواشنطون د . س . فى أمريكا ؟ وهل ترجع تلك الخصائص المشتركة الى تشابه تاريخ تلك المدن ؟ أم أنها ترجع الى تشابه الوظيفة التى تؤديها ، وفى تلك الحالة يمكن التعرف على نفس الخصائص — ولو بشكل جزئى — فى العواصم التقليدية القديمة . واذا كانت هناك ثمة فروق بين المدن التى تؤوى نفس الوظيفة ، فهل ترجع الى فروق بين الثقافات التى تنتمى اليها تلك المدن ؟ وهل هناك أوجه شبه ترجع الى الحضرية (او أسلوب الحياة فى المدينة) فى حد ذاتها ؟

ولاشك أن الاجابة على بعض هذه التساؤلات يمكن أن تكون ذات قيمة عملية فائقة . فهل صحيح — على سبيل المثال — أن الحضرية تكون مصحوبة عادة بانخفاض معدلات المواليد ؟ وقد توصل الى ذلك الفرض بعض علماء السكان البارزين فى الماضى ، الا أن الزيادة الانفجارية الحالة فى سكان البلاد النامية يمكن التقليل منها تلقائيا الى حد ما لو أن التحضر فيها وصل الى مستوى قريب من المستوى الذى بلغه التحضر فى الغرب . فاذا كان مثل هذا الفرض خاطئا ، فان النتائج ستكون وخيمة ولا شك . ولو أن هناك كثيرا من علماء السكان وغيرهم الذين يشعرون الآن — بالفعل — أنه حتى ولو كان ذلك صحيحا ، فان الأمر سوف يتطلب وقتا طويلا قبل أن يحدث ثبات فى عدد السكان نتيجة لعملية التحضر . ومع ذلك فمن الواضح أن أغلب البلاد الصناعية لم تستطع التوصل الى تثبيت عدد السكان بها ، اللهم الا بالنسبه لليابان ، حيث أمكن بنجاح استخدام بعض أساليب تنظيم النسل بشكل مركز وناجح . والخلاصة أن النظرة المقارنة تعلمنا أنه يتعين علينا الا نفترض — على غير اساس من الشواهد الواقعية — أن ما يصدق على مدينة معينة يصدق فى نفس الوقت على مدينة أخرى ، أو أن ما يصدق على نمط معين من المدن يمكن أن يصدق على أنماط أخرى ، أو أن ما يصدق على المدن فى ثقافة معينة يصدق على المدن فى ثقافة أخرى .

ومن الواضح ان النظرة الكلية والنظرة المقارنة ليست حكرا على الانثروبولوجيين دون سواهم ، وانما يمكن للباحثين من فروع أخرى أن يستخدمانها على نحو مثمر . فهل هناك انواع أخرى من البحوث التى يتمتع الأنثروبولوجيون بتأهيل خاص للقيام بها ؟ يمكن القول بصفة عامة ان الأنثروبولوجيين مؤهلين على أفضل نحو للقيام بدراسات ذات طابع ثقافى ، مع التركيز بشكل خاص على بعض المناهج الميدانية مثل المقابلات المتعمقة والملاحظة المشاركة التى تتطلب اندماجا وثيقا نسبيا فى مجتمع البحث . ومن ثم فانه يمكن اجراء البحوث المتعلقة بالمشكلات الايكولوجية ، وعمليات التكيف ، والتغير والثبات الثقافى الاجتماعى ، وأساليب الحياة ، وانساق القيم ، ويمكن اجراء تلك البحوث جميعا فى البيئة الحضرية .

وهكذا فان الاسهام الذى يمكن أن يقدمه الأنثروبولوجى فى الدراسات الحضرية يمكن أن نعتبره — جزئيا — تطبيق المناهج الاثنوجرافية فى دراسة البيئة الحضرية . الا انه من المهم — مع ذلك — أن نتذكر أن الأنثروبولوجيين قد وصلوا الى درجة عالية من الكفاءة فى استخدام الاحصائيات وجمع البيانات الكمية والانتفاع بها ، حتى فى الدراسات المعاصرة التى تجرى عن المجتمعات القبلية أو الريفية . وقد بدأ الأنثروبولوجيون فى الوصول الى تطبيقات جديدة للمناهج الاحصائية على البيانات الكيفية أيضا . ومن الواجب على الأنثروبولجيين الحضريين أن يكونوا على دراية خاصة بهذه المناهج . وعليهم كذلك أن يكونوا قادرين على التعاون مع زملائهم من التخصصات الأخرى ، سواء كان هذا التعاون ايجابيا عن طريق العمل مع أبناء علوم أخرى ، أو كان من خلال الاستفادة الكاملة بالبحوث التى يجريها أبناء تلك العلوم .

ومن الفوائد العديدة لمناهج البحث الأنثروبولوجية تحديد وتحليل الأبنية الاجتماعية غير الرسمية أو الأطر التنظيمية للمجتمع . وقد وضع « ابشتاين » Epstein — مؤخرا — تصنيفا لهذه الأبنية فى افريقيا على النحو التالى :

— العلاقات « الوثيقة » «network» relations

— العلاقات النوعية categorial relations

— والعلاقات الرسمية (٥) Formal or Associational relations. .

وتتضمن الفئة الأولى شبكات العلاقات الاجتماعية مع الجيران ، وزملاء العمل ، والأصدقاء ، والمعارف . ويرى ابشتاين أن نواة هذه الشبكات من العلاقات متضمنة فى شبكات القرابة أو فى الأصول القبلية المشتركة . ويبدو أن هذه المفاهيم ليست عديمة الصلة بالوضع فى الولايات المتحدة . فقد كشفت احدى الدراسات الحديثة — التى لم تنشر بعد — التى أجريت على المصانع المتوسطة أن ٤٠٪ من القوة العاملة فى المصنع جاءت من مدينة واحدة من المكسيك .

أما العلاقات النوعية فتضم تلك العلاقات التى تمثل طريقة أو أخرى من طرق الجماعات التصنيفية . وقد يرجع هذا النوع من العلاقات أيضا — فى أفريقيا — الى أصول قبلية مشتركة . فقد تقوم هذه التصنيفات على أشياء مثل : الانتماء العنصرى ، أو مكان الاقامة ، أو المهنة .

أما النوع الثالث من العلاقات — وهو العلاقات الرسمية — فقد حظى بعناية عدد من الأنثروبولوجيين ، فى أفريقيا وفى بعض مدن أمريكا اللاتينية على السواء . وتقوم مثل هذه العلاقات أو الارتباطات الرسمية على أصول قروية ، أو قبلية ، أو اقليمية مشتركة موجودة فى كثير من المدن . وكثير من تلك العلاقات أو الارتباطات ليس رسميا ، ولكنه لايمكن الكشف عن حقيقته الا من خلال وسائل غير مباشرة . من هذا مثلا رابطة « البانالينها Panalinha الموجودة فى البرازيل والمذكورة فى الفصل العشرين من هذا الكتاب — لم ترد

---

(٥) A.L. Epstein, «Urbanization and Social Change in Africa», Current Anthropology, 8 (1967), pp. 275 – 296.

اليها اشارة على هذا النحو لا فى القواميس ولا فى الكتب التى تتحدث عن البرازيل . وقد تم الكشف عن المصطلح وعن وجوده الواقعى ، وعن اهمية ذلك النظام غير الرسمى من خلال بعض التقارير التى جمعها « ليدز » من بعض الاخباريين عن تطور حياتهم العملية . كذلك قد لا يتيسر دائما الكشف بشكل مباشر عن مسألة القيادة أو القدرة على التأثير . ونسوق مثالا على ذلك انه يمكن بيان نمط الاحترام فى احد الاحياء المتخلفة الأمريكية المكسيكية من خلال اكتشاف الأفراد الذين يخاطبون بلقب التشريف Don أو Dona ولكنه اتضح فى واحد على الاقل من تلك الاحياء انه عندما سئل النـــاس عن الشخص الذين يلجأوون اليه فى أوقات الأزمات (عند التعامل مع الشرطة ، أو البحث عن عمل) ، اتضح ان الشخصية الأساسية التى يلجأوون اليها هى مدير احدى صالات القمار المحلية . أى أن هذا الرجل يحظى بنفوذ كبير فى المجتمع المحلى ، ولكنه ليس موضع أى احترام على الاطلاق .

وقد تناول بانتون Banton بالتفصيل مشكلات تحديد المفاهيم ، والتعرف على الأبنية ، وتحديد وحدات الدراسة ، ومستويات التحليل فى ميـــدان الأنثروبولوجيـــا الحضرية . وتناول كذلك مشـــكلات ربط الأبنية الفرعية بالوحدات او الأبنية الكبرى التى تنتمى اليها فى ذلك المجتمع (٦) . ومن المشكلات الهامة الأخرى الكشف عما يعنيه ذلك للفرد ان ينتمى الى جماعة معينة أو يشارك فى بناء فرعى معين . فمن المؤكد أن ذلك سوف يمهد للكشف عن كثير من الأبنية غير الرسمية الموجودة فى البيئة الحضرية .

---

(٦) Michael Banton, The Anthropology of Complex Societies (New York.: Frederick A. Praeger, Inc., 1966)..

ثالثـــا : طبيعة الفقـــر

ان المؤلفات التى كتبت عن الفقر كثيرة ومتنوعة . وسوف نقتصر فى هذه الفقرة على مناقشة عدد قليل فقط من الاسهامات الأنثروبولوجية فى دراسة هذا الموضوع ، ونشير الى بعض الاتجاهات الأنثروبولوجية فى تناولها . ومن الآراء التى اكتسبت شعبية واسعة مؤخرا ذلك الرأى القائل بأن هناك ثقافة فقر متميزة ذات صفات مشتركة بغض النظر عن المجتمع الذى يوجد فيه هذا الفقر . وتدين هذه الفكر بوجودها الى حـــد كبير لأعمال أوسكار لويس التى أجراها فى بداية الأمر على الاحياء المتخلفة فى مكسيكوسيتى (التى تعرف باسم Vecindades) ، ثم فى بورتوريكو بعـــد ذلك ، ثم بين أبناء بورتوريكو الذين يعيشون فى مدينة نيويورك . ويعرض أول هذه الكتب التى ألفها أوسكار لويس ليوم عادى فى حياة خمسة أسر فى مكســـــيكوسيتى . وتناول فى هذا العرض بالتفصيل الكبير كلا من الانشطة الجماعية والعلاقات التفاعلية والانشطة الفردية خارج البيت . وكانت هذه الأسر الخمس تختلف عن بعضها الى حد ما فى درجة الفقر وفى الخلفية الاجتماعية ، وكان من بينها أسرة واحدة ربما لاتكون ممثلة لاسر الطبقة الوسطى .

ثم تطورت أفكار ثقافة الفقر بشكل كامل لأول مرة فى كتاب : « أطفال سانخيز » The Children of Sanchez الذى تناول بالتفصيل احدى الأسر الخمس عبر فترة من الزمن . ثم تناولها بمزيد من التطوير فيما بعد فى كتاب « لافيدا » La Vida وهو كتاب تناول فيه بالدراسة بعض أبناء بورتوريكو الذين يعيشون فى وطنهم ، والذين يعيشون فى مدينة نيويورك . وأوضح لويس فى هذين الكتابين ان الفقر يخلق ثقافة خاصة به ، ذات عناصر مشتركة بين الفقراء أينما وجدوا . ومن سمات هذه الثقافة أنها تخلق

نفسها بنفسها ، أى أن خصائصها تنتقل من جيل الى الجيل التالى (٧) . وهى تمثل أسلوبا مستقلا فى الحياةذا خصائص مشتركة تصـــادفها اينما وجدت ، ولكنهـا تمثـل فى نفس الوقت ثقافة فرعية داخـل الاطـار الثقافى الكبير الذى توجد فيه اينما كانت .

وقد أثارت مؤلفات أوسكار لويس قدرا كبيرا من الاهتمام بهذا الموضوع، كما أثارت قدرا مماثلا من الجدل . واتبع لويس فى تلك الدراسات منهجا يقوم على اقامة علاقات وثيقة مع الأسر ، وتسجيل المحادثات والمناقشات التى تتم بين افراد الأسرة بواسطة جهاز التسجيل ، واستكتابهم لتقارير عن حياتهم ؛ وأبرز الأحداث التى وقعت لهم . ومن الواضح أنه لم يكن يلجأ الى المقابلات الرسمية الا لكى يستكمل الثغرات فى التفاصيل ، ويحـدد الاطار الذى تتم فيه احداث الحياة الفعلية التى يرد ذكرها . وقدم لويس الجانب الأكبر من المعلومات بنفس الألفاظ التى أدلى بها الافراد . ويصدق هذا بوجه خاص على كتابة « أطفال سانخيز » حيث عرض كل فرد من افراد الأسرة ترجمة لحياته بنفس الالفاظ تقريبا التى أدلى بها . وكانت بعض تلك الكلمات فظة او مبتذلة احيانا ، الامر الذى دعا بعض المكسيكيين من أبناء الطبقة العليا الى مهاجمة الكتاب ، ووصفه بالاحتيال والاساءة الى سمعة المكسيك ، على أساس أن المكسيكى لايمكن أن يستعمل مثل هـذه اللغة اطلاقا ، أو ان يعبر عن بعض الأفكار الواردة فى ســياق الكتاب . ومن الطبيعى أن رد الفعل هذا يكشف بوضوح الى اى مدى يجهل ابناء مستوى اجتماعى معين فى ثقافة معقدة بشكل مؤسف كثيرا من جوانب الحياة فى بلدهم .

---

(٧) Oscar Lewis. Five Families (New York : Basic Books, 1959) ; The Children of Sanchez (New York : Random House, Inc., Alfred A. Knopf, 1961) ; La Vida (New York : Random House, Inc., 1966) ; A Study of Slum Cultures : Background for La Vida (New York, Random Hausc. (1948).

وانتقد البعض « أطفال سانخيز » لأنهم على جانب من الثقافة وسعة الاطلاع ومن ثم فانهم ليسوا ممثلين ، بينما اتهم البعض المادة المدونة بأنها غير أصيلة (غير حقيقية) . وفيما يتعلق بالنقطة الأخيرة ، فانه بوسع أى شخص عاش مع الفقراء فى المكسيك ، أو اتصل بهم عن قرب أن يؤكد أن قصص الحياة التى يصورها الكتاب يمكن تصديقها فعلا ، وأن الوقائع الواردة فيه أصيلة وحقيقية . غير أن هذا لاينبؤنا بطبيعة الحال بعدد الأفراد الذين عاشوا مثل هذه الحياة ، أو تعرضوا لمثل تلك الأحداث . واذا ماقرأنا المقدمة التى كتبها لويس لذلك الكتاب ، واطلعنا على بعض كتاباته الأخرى ، لوجدنا انه قد ابدى بعض التحفظات والتحديدات بشكل واضح . من هذا مثلا أن أسرة سانخيز وابناء الحى الذى تعيش فيه لايمثلون أفقر مستوى يمكن أن نصادفه فى المكسيك وقد أورد بعض البيانات الاحصائية عن سكان هذا الحى المتخلف ، كما أورد بعض المقارنات مع بعض الأحياء المتخلفة الأخرى . وتكمن أهمية الكتاب فى تصويره الحى المقنع لحياة بعض الفقراء فى مكسيكوسيتى ، كما انه يحفز الى مزيد من البحوث الشاملة عن كثير من الموضوعات التى يثيرها .

وقد أوضح لويس أن ثقافة الفقر تضم أفرادا ذوى معدلات وفاة عالية نسبيا ، ومتوسط عمر قصير ، ومستويات منخفضة من التعليم ، ومشاركة ضعيفة فى المنظمات الموجودة فى المجتمع كالنقابات العمالية أو الأحزاب السياسية ، وبعدم المشاركة فى برامج الرعاية الطبية ، أو فى غيرها من برامج الخدمات الاجتماعية ، وقلة الانتفاع بالتسهيلات والمرافق التى تقدمها المدينة ، وانخفاض مستوى المهارة ، وعدم وجود مدخرات أو كثرة الاقتراض وعدم وجود مخزون من المواد الغذائية فى البيت . كما تتميز حياة هؤلاء الناس بالافتقار الى الخصوصية ، وكثرة اللجوء الى العنف بما فى ذلك ضرب الأطفال ، والزواج يتم غالبا بالرضى المتبادل دون تدوين ، وتكثر حالات هجر الزوج للزوجة والأطفال وتتمركز الأسر حول الام ، كما تبدوالتسلطية داخل الاسرة بشكل واضح . ومن السمات المشتركة ايضا الشعور بالاستسلام أو القدرية ، وأهمية عقدة الاعتزاز المفرط بالذكورة عند الرجال ، وعقدة التضحية والاستشهاد عند النساء .

وقد اشارت دراسات أخرى الى تلك السمات وغيرها من سمات الفقر الأخرى التى أوردها لويس . الا أن ميزة كتاب « أطفال سانخيز » أنه يوضح كيفية تواجد هذه الخصائص فى حياة الفرد وفى حياة الأسرة ، ويؤكد على الحاجة الى مزيد من الدراسات الكمية لكثير من تلك الخصائص . ومن النقاط التى تحتاج الى بحث أن نحدد الى أى مدى تعتبر بعض هـذه السمات قاصرة على الفقراء ، والى أى مدى تعتبر قيما مشتركة مع شرائح المجتمع الأخرى . من هذا مثلا أن الأسرة المتمركزة حول الام فى أمريكا اللاتينية ليست شيئا قاصرا على الفقراء وحدهم ، كذلك خواطر الاحساس المفرط بالذكور عند الرجال . فكلا الظاهرتين يبدو بدرجات مختلفة عند ابناء الشرائح الاجتماعية المختلفة . فالاسرة المتمركزة حول الام ظاهرة عامة ، ولكنها تزداد أهمية عند الفقراء بشكل خاص ، لأن الأمهات غالبا ما يكن ربات للأسرة ، بسبب ارتفاع معدلات هجر الأزواج لأسرهم .

ومن الأفكار التى لاقت قبولا واسع النطاق تسببا فكرة ميل ثقافة الفقر الى تخليد نفسها . وعلى الرغم من أن لويس قد قرر أكثر من مرة أنه يستخدم المصطلح لكتاب كان يتوقع له انتشارا واسعا ، وأن ما يعنيه فعلا هو وجود ثقافة فرعية للفقر ، رغم ذلك فانه يتحمل جزءا من المسئولية عن ذيوع هذا المصطلح اليوم . وهذه النقطة لها أهمية تفوق مجرد الأهمية النظرية . فاذا كان فقراء يتصرفون على ما هم عليه ، واذا كانوا يظلون فقراء لأنهم نشأوا فى ثقافة ذات قيم تختلف عن قيم بقية المجتمع ، فاننا بذلك نقترب اقترابا وثيقا من القول بأن الفقراء هم الذين يؤيدون فقرهم ، ومن ثم فهم مسئولون عما هم فيه من فقر . والخطوة الأخيرة فى هذا الجدل ستكون بطبيعة الحال هى وجهة النظر العنصرية فى جوهرها — سواء طبقت على احياء الزنوج أو على غيرهم من أنواع الفقراء — التى ترى ان الفقراء فقراء لأنهم منحطون فطريا .

ومن هذا يبدو أن هناك مجالا واسعا لاجراء الكثير من البحوث الأخرى عن طبيعة الفقر ومدلوله . وقد قدم باحث أنثروبولوجى آخر ، هو توماس

جلادوين Thomas Gladwin فى كتابه « الفقر فى الولايات المتحدة الأمريكية»، رأيا مؤداه أن الفقر فى الولايات المتحدة لايعنى مجرد انخفاض الدخل ، وانما يعنى كذلك تعرض الانسان للاحتقار ، واحساسه بالعجز (أى الافتقار الى المهارات) واحساسه بالضعف (٨) . وهو يرى أن هذه السمات ليست نتاج ثقافة ، أو ثقافة فرعية ، تخلد نفسها بنفسها ، وانما هى انعكاسات لبعض جوانب الثقافة السائدة أو المسيطرة . ويرى أن السياسة العامة فيما يتعلق بمواجهة الفقر — وهى التى يعتبرها سياسة فاشلة — كانت تقوم دائما على أساس افتراض الثقافة التى تخلد نفسها . وعليه فان الفقير يظل عاجزا ، ومحتقرا ، وضعيفا . وتظل ابنية القوة المحلية والقومية دون تغيير ، ولايطرأ أى تغيير على توزيع الموارد والامكانيات المادية والنفسية . ولكن لعل أبرز رأى اكد عليه جلادوين ويعد أخطر تحد لثقافة الفقر هو أن الفقراء لايختلفون فى اهدافهم ، ولا فى قيمهم ، ولا فى اتجاهاتهم عن أبناء الثقافة الرئيسية . كل ما فى الأمر أنهم يشعرون بالاحباط ويمنعون من تحقيق أهدافهم . ومن ثم فانهم يسعون الى تحقيق أهداف بديلة قد لايفهمها ، أو لايقرها ، أبناء الثقافة المسيطرة .

وقد تبنى فالنتين Valentine فى كتابه « الثقافة والفقر » اتجاها مشابها بعض الشىء ، وان كان كتابه يتميز بطابع جدلى أوضح (٩) . ومؤدى رأيه أن الفقراء فى الولايات المتحدة يمثلون مجموعة من المجتمعات الفرعية

---

(٨) Thomas Glaéwin. Poverty, U.S.A. (Boston : Little. Brown, 1967).

(٩) Charles A. Valentine ; Culture and Poverty : Critique and Counter Proposals, (Chicago : University of Chicago Press 1968).

للرجوع الى مناقشة مفصلة لهذا العمل ارجع الى مجلة « الانثروبولوجيا المعاصرة » . Current Anthropology المجلد العاشر ١٩٦٩ ، ١٨١ — ٢٠١ .

غير المتجانسة التى تتميز ببعض الثقافات الفرعية المتباينة والمتكيفة ، والتى تتميز جزئيا فقط وبشكل نسبى عن الثقافة القومية المسيطرة . وهو يرى أن أوجه الحرمان الرئيسية التى يعانى منها الفقراء ، وكذلك وضعهم البنائى داخل النسق الاجتماعى ناتجة جميعا عن سلوك واتجاهات غير الفقراء . ويتضمن العلاج الذى يصفه لهذه المشكلة بعض ألوان التفضيل الايجابى لصالح الفقراء فى الوظائف وفى التعليم ، للوصول الى نوع من « المساواة الجذرية » .

ولاشك أن ارجاع كل سمات الفقر الى ثقافة فقر فرعية انما هو تفسير قاصر . كما نجد من ناحية أخرى أنه حتى فالنتين ، باستخدامه مصطلح الثقافة الفرعية ، يعنى ضمنا عملية النقل الثقافى لبعض الاتجاهات وأساليب السلوك بين جماعات مستقرة تتصف بالفقر . ولاشك أن هذا يكشف بوضوح عن الحاجة الى مزيد من البحوث الأنثوجرافية التى تنهج نهجا أكثر تدقيقا فى استخدام مفاهيم الثقافة ، والايكولوجيا والتكيف .

ومن الملاحظ أن الجانب الأكبر من البحوث التى تجرى حاليا على الفقر تركز على « الجيتو » وعلى المجموعتين السلاليتين الرئيسيتين وهما : الزنوج وابناء بورتوريكو والأمريكيين المكسيكيين الناطقين بالأسبانية . وقد ترتب على هذا وجود نوع من الخلط بين مشكلات الفقر والمشكلات العنصرية . لأنه اذا كان الفقر هو محور الدراسة ، فلا بد أن نراعى أن فى الولايات المتحدة من البيض الفقراء أكثر مما فيها من السود الفقراء . ومن الواضح اننا لايمكن أن نفصل المشكلتين عن بعضهما فصلا كاملا . ولذلك فان هناك حاجة الى اجراء مزيد من البحوث الانثوجرافية لالقاء الضوء على السؤال الرئيسى : ما هو مدلول الفقر ؟ الا انه من المهم كذلك أن نعرف معنى أن يكون المرء فقيرا واسود فى نفس الوقت (أو فقيرا ومن أبناء بورتويكو ، أو فقيرا ومن الهنود الحمر) .

كما انه يجب على البحوث التى تجرى عن الفقر ، والتى تهتم فى نفس الوقت بالمشكلات العنصرية ، أن تذهب الى ما وراء سلوك ، واتجاهات ، وقيم الفقراء . واذا عبرنا عن المشكلة من وجهة بعض القضايا المعاصرة قلنا :

هل الزنوج فى الولايات المتحدة اليوم يريدون التكامل مع المجتمع أو الانفصال عنه ؟ ويعنى الاحتمال الاول انهم يشاركون المجتمع المسيطر آماله ، أهدافه، أما الاحتمال الثانى فيعنى انهم اما ان لديهم ، او ليست لديهم ، فكرة ساذجة عن الواقع الاجتماعى ، اذ يعتقدون أن بوسعهم تحقيق نفس الأهداف فى مجتمع مستقل او مناظر . ومن المسائل التى لم تحسم بعد حتى الآن ما اذا كان الزنوج فى الولايات المتحدة يتميزون بثقافة مستقلة ، او أن لهم اى جذور افريقية واضحة . الا ان البحوث الانثروبولوجية التى أجريت حتى الآن حول هذا الموضوع تدل على أن الجذور الافريقية ضئيلة الى ادنى حد، وان الجانب الأكبر لما يطلق عليه اسم « ثقافة الزنوج » ناشىء عن ردود فعل مشتركة ازاء الثقافة المسيطرة ، وهو ما يصدق الى حد كبير على ثقافة الفقر أيضا . ونجد أن الفقر يعرف فى الولايات المتحدة اليوم على أساس الدخل الذى يقل عن حد معين الا ان هذا لا يعطينا فكرة كافية عن مدلول الفقر كما انه من الممكن علاوة على هذا تعريف الفقر على أساس الحرمان أو الاحباط . فاذا قارنا الفقراء فى الولايات المتحدة بنظرائهم فى معظم أرجاء العالم ، ، وجدنا أنهم يتمتعون بغنى نسبى . ونجد فى داخل الولايات المتحدة نفسها أن الدخل الذى يقدر ثلاثة آلاف دولار فى السنة — او أى تعريف آخر مستخدم حاليا للفقر — يكون ذا دلالة مختلفة اشد الاختلاف عند ساكن حى هارلم ، او واطس ، او مونتجمرى ، أو الاباما ، او عند مزارع امريكى اسبانى فى وادى البيكوس الأعلى ، او أحد ابناء قبيلة النيفاهو على جبال النيفاهو الذى ربما لايكون قد رأى مدينة « توبار » على الاطلاق . فهؤلاء الافراد يختلفون اختلافا ملحوظا فى وجهة نظرهم عن الحياة المرضية ، وفى معرفتهم بأساليب حيـــاة بديلة .

ومن الواضح أن بحوث الفقر ترتبط ببعض مسائل السياسة القومية الاساسية . والملاحظ أن اتجاه الرفاهية فى النظر الى مشكلة الفقر ينطلق اساسا من افتراض وجود ثقافة فرعية للفقر ، وافتراض ان المشكلات سوف تحل اذا ما تبنى الفقراء قيم الطبقة الوسطى الشائعة حاليا . ومن الواضح أن هذا الاتجاه فى تناول المشكلة قد أثبت فشله.وأوضحت البحوث الحديثة الحاجة الى اجراء تغييرات بنائية فى المجتمع المسيطر وثقافته . وعلاوة على هذا

فقد أثبتت طموحات الجماعات السلالية المعاصرة فساد النظرة التى كانت تعتبر المجتمع الامريكى « وعاء يصهر » كافة الاختلافات . فالثقافات السلالية الفرعية لها قيمها الخاصة الفعالة التى يريد ابناءها الحفاظ عليها . ولعل البحوث تستطيع ان تهتدى الى بعض أساليب توسيع الطبيعة التعددية لثقافة الولايات المتحدة بحيث تسمح بوجود تلك القيم المتباينة .

رابعا : احياء واضعى اليد ، والجيتو ، والعلاقات العنصرية

من الواضح من هذا العنوان ان هناك عددا من والظواهر التى ترتبط بالفقر من ناحية ، وببعض المواقع الخاصة داخل المناطق الحضرية من ناحية اخرى . فأحياء واضعى اليد Squatter's Towns تشير الى بعض الأحياء ذات المستوى السكنى المنخفض ، والتى تقوم فى الغالب دون وجود حقوق ملكية واضحة ، وتقوم فى داخل المدينة أو على تخومها . أما حى الجيتو فيتميز علاوة على ذلك بطابع عنصرى . وقد ظهر المصطلح لأول مرة فى ايطاليا للاشارة الى الأحياء الحضرية التى كان اليهود يجبرون على المعيشة فيها . ومؤخرا فقط اتسع مفهوم « الجيتو » بحيث أصبح يشمل الأحياء المتخلفة التى يسكنها مهاجرون — ليسوا بالضرورة من اليهود — أو جماعات عنصرية غير يهودية أيضا ، أما بسبب الفقر أو التمييز الاجتماعى. ومن الظواهر القريبة لهذه فى افريقيا الحديثة احياء « الغرباء » التى غالبا ما تضم سكانا ينتمون الى أصول قبلية أو دينية مغايرة لبقية سكان المدينة ونجد مدينة « كانو » kano فى نيجيريا — مثلا — تنقسم الى اربعة أحياء منفصلة مكانيا عن بعضها هى :

١ — المدينة القديمة التى يحيطها سور ، والتى تمثل الهاوسا غالبية السكان فيها .

٢ — المدينة المسيحية (وكان ابناء الايبو Ibo يمثلون قطاعا هاما فيها ، وقد دمر الجانب الأكبر منها فى المذابح التى سبقت اعلان انفصال اقليم بيافرا) .

٣ — مدينة « الغرباء » ويسكنها الوثنيون .

٤ — المدينة الادارية الحديثة ، وتضم : الادارات الحكومية ، والفنادق ، ومكاتب شركات الطيران ، والمؤسسات التجارية الحديثة ، وأماكن سكن الأفراد الذين يديرون هذه المؤسسات جميعا .

وقد أجريت دراسات عديدة على مدن واضعى اليد (التى تعرف باسم Carriadas) فى مدينة « ليما » بجمهورية بيرو بأمريكا اللاتينية ، وشارك فى هذه الدراسات انثروبولوجيون وعلماء من تخصصات أخرى . وهذه الأحياء عبارة عن مدن سكنها أصحابها بوضع اليد ، تقع على تخوم المدينة ، ومعظم سكانها من المهاجرين القادمين من الجبال . وقد أوضحت البحوث أن تلك الأحياء — او المدن — ليست نتيجة اختيارات فردية عشوائية . فقد بدأت معظم تلك الأحياء تتكون عندما أخذ بعض الناس الذين يعيشون فى احد الأحياء المتخلفة فى المدينة الرئيسية ينظمون صفوفهم ويتحركون كجماعة الى قطعه من الأرض الفضاء ، التى قد تكون مملوكة للحكومة ، او مملوكة للقطاع الخاص . وفى لمح البصر يظهر واضعو اليد على تلك الأرض ، ويقسمونها الى قطع صغيرة ، ويقيمون فوقها مأوى لهم ، يبنونه من مواد مؤقتة وسريعة فى العادة ففى منطقة مدينة ليما ، حيث يكاد المطر ينعدم تماما ، فان اهم المتطلبات المفروض ان يوفرها مثل هذا المأوى هى الوقاية من شمس النهار ، والحماية من الريح . ويمكن توفير ذلك بمجرد بناء حائط واحد يمتد من الشمال الى الجنوب ، تعلوه مظلة صغيرة للوقاية من شمس النهار . ويقضى الناس ساعات النهار على الجانب الغربى من هذا الحائط ، أما بعد الظهر فينتقلون الى الناحية الشرقية منه .

والملاحظ عادة أن مثل هذه المجتمعات تتمتع بحد أدنى من التنظيم ، مما يكفل اختيار ممثلين عنها للتعامل مع السلطات الحكومية أو مع أصحاب الأرض . كما يتطلب الأمر عادة وجود نوع من وسائل حفظ الامن الداخلى ، كما أنه يتحتم على القادمين الجدد فى أغلب الأحيان الحصول أولا على اذن قبل الانضمام الى هذا المجتمع . وتفتقر مثل هذه الأحياء فى الغالب الى المياه الجارية — اللهم الا على مسافة بعيدة — كما تفتقر الى الصرف الصحى ، أو الكهرباء ، أو غير ذلك من المرافق الحضرية . ومن الوظائف التى يضطلع بها تنظيم هذا الحى محاولة ادخال تلك المرافق من السلطات البلدية التى غالبا ما تصر على رفض ذلك ، أو تفتقر الى الامكانيات اللازمة لتحقيقه . كما يبذل ذلك التنظيم جهودا للحصول على اعتراف بالأمر الواقع فيما يتعلق بملكية الأرض . وما أن تقبل سلطات المدينة انشاء الطرق ورصفها ، حتى يؤخذ ذلك فى الغالب على انه اعتراف — بالأمر الواقع — بحقوق الملكية . وعندئذ

يبدأ سكان الحى فى تشييد مبانى أكثر ثباتا ، يبنونها من الطوب اللبن عادة . وبمرور الوقت ينقد قادة الحى نفوذهم السياسى ، وذلك كلما ازداد الحى انصهارا فى مجتمع المدينة .

ومن الجوانب الهامة الأخرى فى حياة تلك المدن تكوين الجمعيات أو النوادى التى تضم أبناء قرية معينة ، أو أبناء اقليم معين . وتهيىء مثل تلك الجمعيات أماكن اللقاء ، كما تهيء فى الغالب بعض المرافق الترويحية ، وقد تضم اليها نوادى رياضية ايضا . ومن شأن هذا أن يكفل قدرا من الأمان الاجتماعى والعاطفى . وغالبا ما يقوم أعضا تلك الجمعيات الأقدم ، والذين صادفوا قدرا أكبر من النجاح — وقد لايعيشون بالضرورة فى الحى — بمساعدة الآخرين فى المشكلات التى تعترض تكيفهم مع حياة المدينة . وتعتبر تلك المنظمات فرصة لسماع الأخبار عن الوظائف الخالية ، أو للحصول على محام ، أو طبيب . وقد يتعلم فيها القادمون الجدد — الذين ليست لهم أقارب — كيف يختارون ملابسهم ، وكيف يحلقون شعورهم ، وكيف يسعون للحصول على وظائف (١٠) .

ومن المعتقدات الشائعة عند الكثيرين من المشتغلين بالعلوم الاجتماعية أن الهجرة الى المدن تكون مصحوبة بالتفكك الشخصى والاجتماعى . وقد تبينا من الدراسة التى أجريت على الأحياء المتخلفة فى « ليما » أن هناك قدرا كبيرا من التنظيم فى حياة ذلك الحى . كما سجل لويس منذ بضع سنوات حالة بعض المهاجرين الى مكسيكو سيتى من مدينة واحدة فى المكسيك ، الذين مروا بنفس التحول دون تفكك اجتماعى (١١) . وقد تعددت الشواهد على هذا النمط يمثل نمطا متكررا فى المكسيك ، على الرغم من أنه لم تجر حتى الان دراسات مفصلة حول الموضوع . كذلك اشارات المعلومات التى

---

(١٠) William Mangin, The Role of Regional Associations in the Adaptation of Rural Migrants to Cities in Peru».

انظر كتاب هيث Heath وآدمز Adams الوارد فى قائمة القراءات فى نهاية هذا الفصل .

(١١) Oscar Lewis, «Urbanization Without Breakdown», Scientific American, 75 (1952), 3-41.

تجمعت من أجزاء أخرى من أمريكا اللاتينية ومن أفريقيا على أن غالبية المهاجرين الى المدينة يعرفون فيها قريبا لهم ، أو صديقا ، أو رفيقا . وتكفل هذه الصلات للقادم الجديد مدخلا الى حياة المدينة . ومن ثم لايتحتم على غالبية القادمين الجدد أن يعتمدوا على أنفسهم وحدهم فى تحقيق التكيف مع حياة المدينة ، لأنهم يستطيعون الاعتماد على أولئك الذين سبقوهم فى الهجرة اليها . ولاشك أن ذلك يسهل عملية الهجرة الى المدينة ، وان كان من الجائز فى نفس الوقت أن يكون تكيف المهاجرين السابقين مشوبا بالعيوب أو نقط الضعف من نواح متعددة . ولذلك نقول ان الطريق قد يكون ممهدا أمام القادم الجديد ، ولكن من الممكن ايضا أن يتعلم نوعا غير مناسب من التكيف .

واذا نظرنا الى الدراسات التى أجريت فى الولايات المتحدة على الهجرة الى المدينة لتبينا أنها غير مرضية فى مجموعها . فهناك بعض الشواهد على أنه ليس البورتوريكيون ، والمكسيكيون ، والزنوج الريفيون وحدهم هم الذين يهاجرون الى مدن يعرفون فيها أحدا ، وانما الوضع كذلك بالنسبة لأبناء الطبقة الوسطى من البيض أيضا . وغالبا مايكون هؤلاء المعارف أقارب . وتوجد فى بعض المدن مناطق معينة تعرف بأنها « بوابات الدخول » التى يفد من خلالها معظم القادمين الجدد . وليست هناك دراسات كافية عن الوظائف التى تؤديها تلك « البوابات » ، وكيف يتم ذلك . كيف يسمع بها المهاجرون الجدد ؟ والى اى مدى تعمل تلك « البوابات » على تكيف القادمين الجدد مع حياة المدينة ، وما هى مدة بقاء الناس فيها ؟ وليست لدينا اجابات مرضية عن هذه التساؤلات .

ويوضح ليدز — الذى درس حوالى ثلاثمائة من الأحياء المتخلفة فى ريودى جانيرو — أن معظم الدراسات تتناول المقيمين فى تلك الأحياء باعتبارهم مهاجرين ريفيين استقروا بها ، ولكنهم لم يصبحوا بعد جزءا من المدينة . والملاحظ بالفعل أن بعض هذه الأحياء قديم بعض الشيء ، ويضم مجموعة من الاستثمارات الاقتصادية الخاصة بسكانه والتى تقدر بعدة ملايين من الدولارات . ويرى ليدز أنه من الضرورى — لكى نفهم الحياة فى تلك الأحياء — أن نعرف المزيد عن مختلف جوانب عملية الهجرة ، ولكن الأهم من ذلك أن نربط ظروف المعيشة فى تلك الأحياء بمجموعة من العوامل الأخرى مثل : ملكية الارض ،

وأنواع الايجارات ، وظروف سوق العمل ، وبناء الأجور ، والأنماط البديلة للاسكان الرخيص ، ونظام النقل والمواصلات وتكاليفه ، وتعصب الموظفين ضد سكان تلك الأحياء (غير القائم على الاعتبارات العنصرية ، اذا كانت تلك ظاهرة أصلا) ، وطبيعة العلاقات والمنظمات الاجتماعية الداخلية كمدارس السامبا Samba Schools والخدمات والأعمال التى يؤديها سكان الحى للمجتمع الكبير ، ونسبتهم الى مجموع القوة العاملة . وقد أوضح ليدز ومساعدوه — على سبيل المثال — أنه اذا هدمت تلك الاحياء ونقل سكانها الى مساكن جديدة على حدود المدينة ، فان أغلبيتهم لن يعجزون فحسب عن دفع الايجارات العالية التى قد تتكلفها تلك المساكن ، وانما سوف تستهلك نفقات الانتقال الى أعمالهم نسبة مرتفعة جدا من دخولهم . ولاشك أن نقص العمالة — على الاقل فى ظل مستويات الأجور الحالية — قد يؤثر تأثيرا خطيرا على جزء من اقتصاديات المدينة . وقد أوضح هذا كله الحاجة الى دراسة تلك الأحياء دراسة منهجية فى علاقتها ببقية جوانب الثقافة . وربما يصدق نفس الكلام على دراسات أحياء « الجيتو » الحضرية فى الولايات المتحـدة .

وحتى وقت قريب كانت الدراسات الأنثروبولوجية عن الأحياء المتخلفة وأحياء الجيتو فى الولايات المتحدة ماتزال قليلة . وكان « وايت » قد أوضح منذ وقت بعيد أن المناهج الاثنوجرافية يمكن أن تستخدم فى دراسة عصابات الشباب وجماعاتهم،وتلقى الضوء على الوظائف الاجتماعية التى تؤديها تلك المنظمات لأفرادها . كما أوضح وايت أن الحياة فى الجيتو وفى الأحياء المتخلفة بصفة عامة ذات أبنية اجتماعية محكمة وواضحة على خلاف الراى الشائع . وقد أيدت الدراسات الحديثة عن العصابات نتائج البحوث القديمة التى أجراها وايت . ومن الاتجاهات الجديدة الأخرى اعادة النظر فى الوظائف الاجتماعية للاسرة المتمركزة حول الأم ، وطبيعة اللهجات المستخدمة فى الجيتو ، والأنماط الخاصة الأخرى فى الجماعات أو النظم.ومن أمثلة النوع الأخير دراسة أجريت حديثا على الذكور الذين تكرر القاء القبض عليهم بسبب الافراط فى شرب الخمر. وقد أوضحت هذه الدراسة كيف أن الاتجاهات العامة وأداء رجال الشرطة لعملهم ونظام السجون يعمل على خلق جماعة فرعية ذات سمات ثقافية متميزة . وهناك دراسات أخرى تتناول بعض المشكلات الخاصة كالصحة

العامة او التعليم (وسنتناولها بمزيد من التفصيل فى الفقرة خامسا من هذا الفصل) . ولفت كل تلك الدراسات النظر الى العديد من الموضوعات الواسعة والوثيقة الصلة بالميدان التى تحتاج الى اجراء مزيد من البحوث عليها (١٢) .

ومن المشكلات التى تعيب كثيرا من البحوث المنشورة والتى تجرى حاليا ذلك الخلط الذى مازال قائما بين دراسة الجيتو او الأحياء المتخلفة والبحوث غير العنصرية . فالمجالان يرتبطان كما هو واضح أوثق الارتباط ببعضهما ، ولكن لايتم التميز بينهما تمييزا واضحا دائما . فدراسات الجيتو او الأحياء المتخلفة بوصفها شكلا اجتماعيا تكون محدودة عادة . ويصدق نفس الحكم على الدراسات العنصرية ، فقليلة تلك الدراسات التى تتناول الجماعات السلالية فى مجموعها . كما ان الدراسات العنصرية تميل الى تناول جماعات محدودة، بل اننا نفتقر فى الوقت الراهن حتى الى دراسات تتناول الجماعات العنصرية فى مدينة ما بالمنظور الشامل الذى تناولته دريك Drake وكايتون Cayton المعنوية : « العاصمة السوداء » ، وهى دراسة عن السكان الزنوج فى شـــــيكاغو (١٣) .

هذا وقد اقتصرت كثير من الدراسات المتصلة بالجماعات العنصرية على تناول بعض المشكلات المحددة مثل : الوضع العنصرى ، أو التمثيل ، أو التغير الثقافى . كما اقتصرت على بعض الجوانب المحدودة من الثقافة كالاسرة والقرابة ، او الطب الشعبى ، أو القيادة او غيرها من الظواهر التى تفترض أن الجماعة العنصرية تتميز فيها السمات الفريدة . وبذلك

---

(١٢) Wiliam A. Whyte, Street Corner Society (Chicago : University of Chicago Press, 1943) ; James F. Spradley, You Owe Yourself a Drunk : Ethnography of Urban Nomads (Boston Little, Brown and Company, 1970).

(١٣) St. Clair Darake and Horace R. Cayton Black Metropolis A Study of Negro Life in a Northern City (New York, Harcourt, Brace, 1945).

تحول الحى المتخلف أو الجيتو الى مجرد مجال محدود مريح لاجراء مثل هذه البحوث ، بدلا من أن يصبح هو نفسه محور الاهتمام الرئيسي . وكما أننا نحتاج الى أن نعرف المزيد عن معنى الفقر أكثر من مجرد قياس الدخل ببساطة ، كذلك نحتاج بالمثل الى أن نفهم حياة الجيتو أو الحياة فى الحى المتخلف . ونحن نعلم أن هناك بعض العوامل الخارجية التى تساهم فى تشكيل وتحديد الطابع المميز أو الحى المتخلف مثل : التباين فى مستويات الاسكان أو عدم وجود بدائل رخيصة للسكن ، والمستويات التعليمية ومستويات المهارة ، والضغوط الخارجية بأنواعها المختلفة . ولكن مع وضوح دور هذه العوامل الا أن الجماعات التى تسكن تلك الاحياء قد تقدم لأفرادها بعض أنواع الامن وبعض الجزاءات عن طريق الارتباط بأفراد يتكلمون نفس اللغة ويسلكون نفس السـلوك .

الا انه من الواضح بوجه عام أن الأنثروبولوجيا قد ساهمت فى دراسة المشكلات الحضرية فى أفريقيا وامريكا اللاتينية بنصيب أكبر من مساهمتها فى دراسة تلك المشكلات فى الولايات المتحدة . وقد يرجع ذلك فى جزء منه الى قدر من الرومانسية عند علماء الانثروبولوجيا وطلاب البحث فيها ، الذين يرون البيئات البعيدة والغريبة أكثر جذبا لهم واثارة لانتباههم . وقد ترجع تلك الظاهرة كذلك الى أنه قد يكون من الأيسر للباحث الأنثروبولوجى أن يحصل على معونة لدراسة مشكلة المهاجرين الريفيين الى ليما ، أكثر من سهولة الحصول على معونة لدراسة المهاجرين الى ديترويت .

خامسا : التعليم والصحة الحضرية

اشرنا فى موضع سابق * الى دراسات الانثروبولوجى سبندلر Spindler على آثار الفروق الطبقية بين المدرس والتلميذ . ثم ظهر حديثا جدا باحثون آخرون — مثل اليانور ليكوك Eleanor Leacock — ساروا على نفس هذا المنهج (١٤) . اذ قام بعض الانثروبولوجيين بدراسة آثار الفروق بين الثقافات الفرعية وأساليب تربية الأطفال على مدى تقبل المادة التعليمية وعلى التحصيل الدراسى . كما اننا فى حاجة ملحة الى دراسات انثروبولوجية عن طبيعة جماعات الرفاق فى المدارس وتأثيرها .

وقد أجرى بعض الانثروبولوجيين عددا من الدراسات عن المفاهيم الصحية ، وخاصة بين جماعات الأمريكيين المكسيكيين . ولما كان معظم الأمريكيين المكسيكيين الذين هاجروا الى الولايات المتحدة قد جاءوا من جماعات ريفية أو من شرائح طبقية دنيا وهامشية فى المدن الصغيرة ، فقد كان من الواضح أنهم صحبوا معهم اتجاهات مختلفة نحو المرض ، كما صحبوا معهم كثيرا من المعتقدات والممارسات الطبية الشعبية . فلم يعد المرض ذا مفهوم مختلف فحسب ، وانما أصبحت له دلالات اجتماعية مختلفة أيضا ، لأنه أمر يخص الأسرة ولا يخص الفرد وحده . وما أن تتبين الأسرة وقوع حالة اصابة بالمرض ، حتى يعاد تكييف العلاقات داخل الأسرة الممتدة وجماعة الجوار . فلابد من اعادة توزيع الواجبات والمسئوليات العائلية اذا ما كان المريض

(*) يشير المؤلف الى الفصل السابع عشر من الكتاب (الذى ترجمنا عنه هذا الفصل)، وهو الفصل المعنون « الثقافة والفرد » ؛ ص ص ٥٣٦ — ٥٧٣ .

(المترجم)

(١٤) Eleanor Leacock. Class and Colar in City School : A Comparative Study (New York : Basic Books, 1969).

بالغا ، ويصبح الشخص المريض محور اهتمام الأسرة ، ويصبح هدف جانب من العلاج اعادة تكامل الفرد داخل الأسرة . ولا تخشى الأسرة المستشفى لانها مجهولة ، وطعامها غريب ، وغير لذيذ المذاق ، بل وضار ايضا ، وانما المهم أن الاحساس بالعزلة فيها يكون شديدا جدا .ويعتقد أن بعض الأمراض ترجع الى تأثير سحرى أو الى اعمال الشعوذة ، أو انها عقاب على خطيئة ، أو نتيجة نوع من الخوف ، او بسبب فقدان الروح ، أو بسبب الحسد . كما يعتقد ان هناك أمراضا اخرى ترجع الى تناول اطعمة فاسدة او الى الجمع الخاطىء بين انواع مختلفة من الطعام ، أو الى تناول الطعام فى ظروف معينة . كما أن هناك اعتقاد بفاعلية كثير من الأدوية المصنوعة من الأعشاب ويندرج تحت هذا الباب كثير من الأفكار التى تعتبر تفسيرات شعبية لما كان شائعا عن طب جالينوس فى البلاد الغربية قبل بدايات الطب العلمى منذ اكثر من قرن من الزمان . ومن الممكن تسجيل هذه المعتقدات والاتجاهات وامثالها الشائعة بين كثير من الأمريكيين المكسيكيين . وهناك اتجاه الى اعتبارها تراثا مشـــتركا بينهم .

وهناك دراسة أساسية بعنوان « الصحة فى ثقافة الأمريكيين المكسيكيين»، درست فيها مارجريت كلارك حيا متخلفا صغيرا خارج مدينة « ســـــان جوزيه » San Jose فى كاليفورنيا (١٥) . وقد ولد اكثر من ثمانين فى المائة من سكان ذلك الحى فى الولايات المتحدة ، وهى نسبة لاتختلف كثيرا عن احياء الأمريكيين المكسيكيين فى الأجزاء الاخرى من الولايات المتحدة. وولد عدد من ارباب الاسر فى المكسيك ، الا أن متوسط اقامة ارباب الأسر المكسيكية المولد فى الولايات المتحدة كانت ٣٣٫٦ سنة . ولايوجد فى الحى شخص واحد عاش فى المكسيك خلال السنوات الخمس السابقة على البحث . وهناك ١٠٪ فقط عاشوا خلال السنوات العشر السابقة على البحث . والمستويات التعليمية ومستويات الدخول فى الحى منخفضة .

---

١٥) Margaret Clark, Health in the Mexican - American Culture (Berkeley : University of California Press, 1959).

وايجارات المساكن منخفضة ، وان كانت جميع مساكن الحى دون المعدل ، ولا تزيد بعض بيوته عن الأكواخ كثيرا . والملاحظ من ناحية أخرى أن عددا كبيرا من الاسر تستطيع الحصول على مساكن افضل خارج الحى ، الا انهم لايفعلون لأنهم سوف يشعرون بعدم الامن وبعدم الراحة فى الأحياء الامريكية أو بين الغرباء كما أن كبار السن بوجه خاص يفضلون الحياة فى مجتمع يتكلم فيه الجيران وأصحاب المحال اللغة الأســـــبانية .

ويعتقد ان سكان هذه الأحياء المتخلفة لايترددون كثيرا على المستشفيات، والعيادات الخارجية ، وعيادات الأطباء ، وهم فى ذلك أقل من سائر الجماعات الأخرى . والاسباب التى تقدم لذلك عديدة منها أن الأطباء لايفهمون الامراض المكسيكية ، ثم انهم يتصفون بالبرود وبالعلاقات غير الودية بشكل مخيف ، ولايسمحون لأفراد الأسرة الآخرين بحضور جلسات الاستشارة أو الكشف، ولايسمحون للاطفال ان يصاحبوا امهاتهم وليس للأمهات احد يتركونهم عنده، ثم أن المستشفيات موحشة اشد الوحشة ، مواعيد الزيارة فيها محددة ، وطعام المستشفى اما انه عديم المذاق وغير صالح للأكل او انه ضار للمريض .

وقد أوردت دراسات أخرى نفس الأفكار عن الصحة بشكل مسهب بالنسبة لأمريكا اللاتينية وبالنسبة للأمريكيين المكسيكيين الذين يعيشون فى نيو مكسيكو وتيكساس . فهل يعنى هذا أن الأمريكيين المكسيكيين لايلجأون انى المستشفيات والى الطب الحديث ؟ هناك بعض الأنثروبولوجيين وبعض دارسى الصحة العامة الذين يعتقدون أن ذلك كذلك فعلا . الا أن هناك دراسة عن استخدام المستشفيات فى لوس انجلوس — لم تنشر بعد — تثير الشك فى صحة هذه الفروض بالنسبة للمناطق الحضرية . وعلى الرغم من أن جميع عمليات الولادة فى مقاطعة لويس انجلوس تتم الآن فعلا فى المستشفيات ، الا أن هناك نسبة ضئيلة منها مازالت تتم خارج المستشفيات . وتمثل الأمهات الأمريكيات المكسيكيات نسبة كبيرة من هذا العدد . وتصادف نفس الوضع بالنسبة لموضوع الرعاية الطبية اثناء فترة الحمل ، وبالنســـبة لاستخدام المستشفيات عند الاصابة بأمراض خطيرة . ويبدو للوهلة الأولى

أن ذلك يؤكد الأساس الثقافى لعدم الاقبال على استخدام المرافق الطبية . الا أن الباحث خطا خطوة أبعد من ذلك ، اذ عقد مقارنة بين الأمريكيين المكسيكيين ، والزنوج ، والبيض . ثم قسم تلك الجماعات على أساس مستويات الدخل والمستويات التعليمية . فعندما قارن بين الجماعات التى تحصل على نفس الدخل والتى تتميز بنفس المستوى التعليمى ، لم يجد فروقا ذات دلالة بين الأمريكيين المكسيكيين والزنوج والبيض . ومن ثم فان الفروق الواضحة هذه انما هى نتيجة الفقر وانخفاض مستوى التعليم ، وليست راجعة لكون أولئك الناس مكسيكيين ، اللهم الا اذا أخذنا الموضوع بمعنى أن الامريكيين المكسيكيين اكثر فقرا واقل تعليما بالقياس الى الجماعات الأخرى ، ولعل الاستثناء الوحيد ذى الدلالة من هذه النتائج أن الأفراد الذين قدموا حديثا من المكسيك اقل اقبالا على استخدام المرافق الطبية من زملائهم الذين أقاموا بالولايات المتحدة مدة أطول أو الأمريكيين المكسيكيين المولودين فى أمريكا .

ويدلنا المثال الذى ضربناه على أن الأنثروبولوجيين يستطيعون تحديد السمات المميزة للجماعات العنصرية المختلفة من نواح تتصل بالمشكلات الحضرية . كما يوضح هذا المثال ايضا ان الدراسات الأنثروبولوجية قد تعيبها بعض أوجه القصور عندما تنسى أنه حتى الجماعات العنصرية تمثل جزءا من بيئة ثقافية أكبر ، وعندما لا تستخدم تلك الدراسات نظرتها الكلية المميزة لهـا .

وقد أثار توماس جلادوين نقطة مماثلة فى مناقشته لدراسة عن المتخلفين عقليا التى أجراها الأنثروبولوجى « روبرت ادجرتون » (١٦) . وكان ادجرتون قد درس أساليب سلوك الأفراد المتخلفين عقليا فى المجتمع الكبير بعـد

---

(١٦) Thomas Gladwin, «Review of Robert Edgerton's The Cloak of Competence : Stigma in the Lives of the Mentally Retarded», The American Anthropologist, 70 (1968), 618-20.

خروجهم من مؤسسات العلاج ، فاكتشف عديدا من أوجه الشبه فى أساليب سلوك المتخلفين عقليا ، ورأى نتيجة لذلك أنهم يتميزون بثقافة فرعية خاصة بهم . ومع ذلك يتساءل جلادوين عما اذا كان من الضرورى أن تشترك كل جماعة من الناس فى ثقافة فرعية بمجرد أنه يمكن اطلاق اسم مميز على أفرادها ، واشتراكهم فى بعض أساليب السلوك المميزة . فالأفراد المتخلفين عقليا الذين نجحوا فى شق طريقهم فى الحياة بعد الخروج من مؤسسات العلاج يحرصون على أن يبتعدوا عن بعضهم ، ومن ثم لايمكن القول بأنهم يتناقلون ــ الواحد من الآخر ــ أى سلوك ثقافى بأى معنى من المعانى . ومن ناحية أخرى تشير دراسات مختلفة الى ان المؤسسات العلاجية للمتخلفين عقليا تتميز بثقافات فرعية خاصة . كما ان الثقافة السائدة لها مجموعة منمطة (ثابتة الشكل والمعالم) من الاتجاهات والاستجابات ازاء المتخلفين عقليا ، ومن ثم يمكن أن نلتمس منشأ السلوك المشترك بين المتخلفين عقليا أولا فى المؤسسات العلاجية التى خرجوا منها ، ثم ثانيا فى الاستجابات الضرورية المشتركة لتوقعات الثقافة الكبرى ، التى لن تسمح بشى آخر . ويزيد جلادوين وجهة نظره ايضاحا بالاشارة الى ما يطلق عليه الثقافة الهندية العامة Pan—Indian Culture للهنود الحمر الأمريكيين . اذ من الواضح فساد الفكرة القائلة بأن الهنود الحمر فى الولايات المتحدة ــ ناهيك عن هنود القارة كلها أو العالم الجديد كله ــ كانوا يشتركون جميعا فى خصائص ثقافية قبل مجىء الأوربيين . فأساس حركات وحدة الهنود الحمر ، وأى سلوك مشترك بين الهنود الحمر اليوم ، ان هو الا مجموعة من الاستجابات لسياسات ، واتجاهات ، وأفعال الثقافة السائدة . وقد أثار جلادوين نفس النقطة أيضا فيما يتعلق بثقافة الفقر (أنظر الفقرة الثالثة من هذا الفصل) . وهو لايرى أن الأنثروبولوجيين لم يقدموا اسهامات هامة ، وانما رأيه أنهم لم يكونوا يستخدمون دائما استخداما كاملا مفهومهم الأساسى عن الثقافة . فأساليب السلوك التى تمثل استجابات متشابهة من جانب أفراد نفس الثقافة لعوامل تخصها نفس المواقف قد تبدو كما لو كانت ثقافة فرعية . ولعله يصبح من الممكن بمرور الوقت تعلمها ، وتصبح جزءا من الثقافة . ولكنها لايمكن أن تعتبر أنماط سلوك ثقافى ، الا اذا تحددت ميكانيزمات النقل الثقافى تحديدا واضحا . وتبدو هذه المسألة على جانب كبير من الأهمية عندما نكون بصدد دراسة سلوك

الفقراء ، أو أى جماعة من الجماعات كالزنوج مثلا ، الذين عاشوا أجيالا طويلة داخل ثقافة الولايات المتحدة . فالى أى مدى يمثل سلوكهم الحالى سلوكا مكتسبا من خلال الانتماء الى جماعة ذات ثقافة فرعية خاصة ، والى أى مدى يمثل هذا السلوك استجابات فرعية متكررة للثقافة السائدة .

سـادسا الخلاصـة

قام الأنثروبولوجيون باجراء دراسات للمجتمعات المحلية الحضرية فى افريقيا وأمريكا اللاتينية . وتناولت كثير من هذه الدراسات جوانب خاصة من الثقافة والمجتمع ، كالهجرة من الريف الى الحضر ، وعمليات التكيف مع الحياة الحضرية . وحدث فى احيان كثيرة ان جردت بعض المنظمات الطوعية، أو التجمعات المحلية ، كأحياء واضعى اليد أو الأحياء المتخلفة ، جردت من اطارها الحضرى لاجراء تحليلات خاصة . ومن الأخطاء المتكررة التى تعيب مثل هذه الدراسات اخفاقها فى ربط تلك الجماعات — على النحو الملائم — بالبناء الحضرى ، الكلى ، أو بالنظريات العامة فى الحضرية . وعلى الرغم من أن بعض الدراسات المبكرة فى الولايات المتحدة ، مثل دراسات الميدلتون واليانكى سيتى ، كانت محاولات لعمل تحليلات شاملة ، الا أن معظم الدراسات الأنثروبولوجية التى أجريت فى المدن الأمريكية قد حوت كذلك بعض الموضوعات الخاصة ، مثل الصحة أو التعليم ، أو عزلة مجتمع محلى فرعى .

والاسهام الرئيسى الذى تستطيع الأنثروبولوجيا أن تقدمه لالقاء الضوء على مشكلة الحضرية المعقدة هو تقديم أنماط بنائية للتحليل موجهة نحو البناء الحضرى الكلى ، وهو كذلك بعض أنماط الدراسات التى تعتمد بشكل خاص على المناهج الانثوجرافية فى البحث ، مع الأخذ فى الاعتبار أن هناك علوما اخرى يمكن أن تدرس بعض المشكلات بشكل اكثر كفاءة . ومن أكثر المجالات القابلة للبحث بعض جوانب التعليم ، والفقر ، والعلاقة العنصرية ، حيث يمكن أن تلقى المناهج الاثنوجرافية الضوء على أنماط الحياة ، وأن تعزل بعض الموضوعات الهامة لدراستها دراسة كمية مفصلة . وقد ساهم الانثروبولوجيون بشكل بارز فى دراسة مشكلات تأثير الثقافات الفرعية المحددة طبقيا وتأثير الانتماء العنصرى على التعليم ، وعلى الصحة ، وعلى فهم مشكلات الفقر . ويبدو أن أوجه القصور التى تعيب بعض هذه الدراسات

لايرجع الى نظرتها ومناهجها الانثروبولوجية ، وانما يرجع الى اخفاقها في استخدام مفهوم الثقافة بشكل اكثر كفاءة ، والانتفاع بالاتجاه المقارن والنظرة الكلية انتفاعا كاملا . ولاشك ان تحديد ما اذا كانت هناك ثقافة فرعية للفقر تخلق نفسها بنفسها فعلا ، أو أن كل ماهناك عبارة عن مجموعة من الاستجابات المشتركة التى تصدر عن الفقراء والمحرومين ازاء السمات المميزة للثقافة السائدة ، لاشك أن ذلك موضوع له اهميته النظرية ، ولكن له كذلك أهميته الكبرى لرسم السياسة العامة .

قراءات مقترحـــة

Banton Michael (el.). The Social Anthropology of Complex Societies New York & Washington Frederik A. Praeger ; 1966. —One of few attempts at a total a review of Problems of Studying Complex Societies including Urbanism.

Burma, John H. (ed). Mexican — Americans in United States. Cambridge, Mass : Schenkman, 1970 (distributed by Harper de Row). — Collection of Papers on the Second largest minority group in the United States.

Eddy, Elizabeth M. (ed.) Urban Anthropology Southern Anthropological Society Proceedings. No. 2. 1969. — A Collection of recent Papers by Anthropologists on Urban research.

Epstein. A. L. Urbanization & Social Change in Africa. Current Anthropology, 8 (1967), 275 — 295. — Review Studies in Areas Anthropologists first Studied Urbanism and finds regional differences.

Carvard, Thomas Poverty U.S.A. Boston : little Brown, 1967. — An Anthropologist examines. What Poverty is in the U. S. A. & questions the Culture of Poverty Concept.

Culick, John. Tripoli. A modern Arab City. Cambridge :

Harvard. University Press. 1967. — The only anthropological Study of an Arab City.

Herskovits, Melville J. The New World Negro. Edited by Frances S. Herskovits. Bloomington : University of Indian Press; 1966. — Still a major Survey of the Negro in the New World although in part Superseded.

Leacock Eleanor. Class and Color in City Schools : A Comparative Study. New York : Basic Books, 1969. — An Anthropological Study of education. Class, & Color.

Leeds, Anthony (ed). Pio's Favelas. Austin : University of Texas, Institute of Latin American Studies. In Press. — Ethnographic Study of Slum areas in Rio de Janeiro.

Lewis Oscar. The Children of Sanchez. New York : Random House Alfred A. Knopf, 1961. — The most widely knomn of Several Words by this author dealing with the Culture of poverity.

Little, Kenneth. West African Urbanization. Cambridge University press, 1965. — A good example of anthropological Studies of Urbanism in Africa.

Mafthew, Elmora Messer. Neighbor and kin : Life in a Tennessee Pidge Community. Nashville : Vanderbilt University Press, 1965. — Where do Urban People Came from ? A Study of the bakground of many migran's in the urban Middle West.

Peattie, Lisa Redfield. The View from the Barno. Ann Arbor: University of Michigan, 1968. — Study of Slums in a new Venezuelan City. Industrial.

Powdermaker, Hortense. Copper Town : Changing Africa. New York : Harper of Row, 1962. — Includes interesting approach though study of mass media and their effects.

Reissman, Leonard. The Urban Process : Cities in Industrial Societies. New York : Free Press, 1964. — A representative Sociological View of Urbanism under Industrial Condition.

Rubel, Arthur J. Across the Tracks : Mexican - Americans in a Texas City. Authin and London : University of Texas Press, 1966. — one of best Studies of a « brow » Community in a Small Texas City.

Spoehr, Alexander (ed). Pacific Port Towns and Cities. Honolulu : Bishop Museum Press, 1963. — A Comparison of a Special Urban type.

Warner. W. Lloyd, Robert J. Havighurst & Martin B. Loeb. Who Shall be Educated : The Challenge of Unequal Opportunities. New York : Harper, 1944. — An early anthropological examination of Unequal educational opportunity.

Whitten, Jr. Norman E. & John W. Szwed (ed.). Afro — American Anthropology. New York : The Free Press, 1970. — Most recent Studies on the Cultures of the Afro — American from Brazil to the United States, from rural to ghetto life.

Whyte, William F. Street Corner Society : The Social Structure of an Italian Slum. 2 nd ed, enlarged. Chicago : University of Chicago Press, 1961. — A Classic application of ethnographic technique by a Sociologist in an Urban Setting.

Valentine, Charles A. Culture and Poverty — Chicago : University of Chicago Press, 1968. — A Controversial & Polemic book about the nature of poverty and What Should be done about it.

Young, M. & P. Willmot. Family and Kinship in East London. London : Boutledge of Kegan Paul 1957. — One of the few extensive Studies of Kinship and the Family in an urban Setting.